النظرية التأويلية والنص الأدبي

د. خروب محند أو يحي
قسم الترجمة - كلّية الآداب واللّغات
جامعة مولود معمري بتيزي-وزو

مقدّمة: تُعدُّ النظرية التأويلية ــ التي تدعى أيضاً نظرية المعنى ــ من أهمّ نظريات الترجمة التي عرفها القرن العشرون. ولقد وضعتها المدرسة العليا للتراجمة والمترجمين بباريس بقيادة كلّ من **دانيكا سيليسكوفيتش** (Danica Seleskovitch) و**ماريان لودورير** (Marianne Lederer). صبّت هذه النظرية اهتمامها في بداية نشأتها على العقبات التي تعترض الترجمان. طرحت نظرية المعنى طريقة في الترجمة تقوم على نقل المعنى بشقّيه الصريح والضمني.

بيد أنّ الوصول إلى المعنى ليس دوماً بالأمر السهل. ويحول بين التُرجمان والمعنى عقبات من مستويات عدّة: لسانية وأسلوبية وثقافية وغيرها. لذا تقترح النظرية التأويلية استكشاف ما هو أبعد من النص والمتمثل فيما يجول في خاطر الكاتب قبل أن يكتب نصه أو ما تسمّيه النظرية بمفاد/مقصد القول (vouloir dire). ويكون الجهد الذي يبذله الترجمان بهذا الشكل أكثر بكثير ممّا يبذله حينما يهتم فقط بدلالات الألفاظ والعبارات. وللوصول إلى مفاد القول، على التُرجمان الاعتماد على ما يتقاسمه من معارف مكتسبة وخبرات (savoir partagé) مع الكاتب والتي يلتمسها من خلال النص.

ومع النجاح النسبي الذي حققته النظرية على مستوى الترجمة الشفوية ونزولاً عند رغبة طلبة **سيليسكوفيتش** من جهة وإيماناً من مؤسسي النظرية من جهة أخرى، تمت محاولة تعميم مبادئها على الترجمة التحريرية بمختلف أنواعها. ولقد كشفت التجربة التُرجمية هنا أيضاً إمكانية تطبيقها على أرض الواقع. ويلجأ كلّ من

التُرجمان والمترجم المعتمدان على تلك النظرية أساساً إلى مرحلة أوّلية مهمّة تُدعى التأويل (الفهم) ومنها تستمدّ النظرية تسميتها.

ولقد لاحظنا من خلال تجربتنا في ميدان الترجمة أنّ تطبيق النظرية التأويلية على ترجمة النصوص التقنية بصفة عامة يُعدُّ أمراً ممكناً إلى حدٍّ كبير وذلك لطغيان المضمون فيها على الشكل. لكن ما هي نسبة نجاح النظرية التأويلية عند تعاملها مع النص الأدبي علماً أنّ هذا الأخير يتميّز عن النص العلمي أو التقني بذاتيته وبلاغته وغموضه ومعانيه المضمرة وغيرها من الأبعاد التي لا تنحصر في المعنى فقط ؟

1 ــ مبادئ عامة للنظرية التأويلية

1 ــ 1 ــ التمييز بين الدّلالة والمعنى (signification et sens)

قسم **دو سوسور** اللّغة (langage) إلى قسمين: اجتماعي يتمثّل في اللّسان (langue) وفردي يشكله الكلام (parole). وقسمت **سيليسكوفيتش** و**لودورير** بدورهما المعنى إلى نوعين: معنى دلالي (signification) ومعنى سياقي (sens). يتمثّل المعنى الدلالي في المعنى (أو المعاني) الذي يتخذه اللّفظ أو العبارة في لغة ما دون وضعها في سياق محدد. فهو معنى لا يتغيّر بتغيّر مقام التبليغ أو الخطاب (situation de communication/discours) لكونه مستقلاًّ عنه. وما يقابل المعنى الدلالي الذي تشير إليه نظرية المعنى في النظرية البنوية هــو الدليل اللّساني (signe linguistique) وما يقال عن الثاني يقال عن الأول. أمّا المعنى السياقي فلا يتطابق بالكامل مع المعنى الدلالي، فالمعنى السياقي ليس متضمّنا في الألفاظ والعبارات بل هو وليد عمليات التخاطب والتواصل والكلام بين الناس ويتمّ كلّ هذا باللّجوء إلى توظيف المعاني الدلالية أو بالأحرى اللّسان بصورةٍ فردية وذاتية. يختار المخاطِب الألفاظ والعبارات التي يراها قادرةً على تأدية المعنــــى الذي يريد إيصاله (vouloir dire) إلى المتلقّي. فبانتقائه للمعاني الدلالية وتوظيفها في زمان ومكان محدّدين (espace-temps) وفي ظروف (circonstances) خاصّة تمليها

طبيعة الخطاب وموضوعه ينتج المتكلّم أو الكاتب معاني سياقية. وما يقابل المعنى السياقي الذي تتحدّث عنه النظرية التأويلية للترجمة في منطق **دو سوسور** هو "الكلام" لأنّه يُوضع في سياق. كما يمكننا مقارنة المعنيين الدلالي والسياقي لنظرية المعنى بالمعنيين الحرفي (sens littéral) وغير الحرفي(non littéral) اللّذين حدّدهما **جون سيرل** (John Searle) بحيث يقصد بالأول معاني الكلمات خارج سياق الكلام وبالثاني ما يذهب إليه المخاطِب من خلالها.

لو نظرنا بتعمّق في كلّ ما ذهبت إليه نظرية المعنى منذ نشأتها إلى يومنا وعلى الرُغم من تعدّد الملفات التي تعرّضت إليها سنستشف أنّ هدَفها الرئيسي يتمثّل في حمل الترجمان والمترجم على تجاوز عقبة اللّغة. إنّ اللّغة بالنسبة **لسيليسكوفيتش** و**لودورير** وغيرهما ممّن يتبنّى أفكارهما ما هي إلاّ وسيلة تخاطُب تحمل دلالات (significations) شبه مستقرة[1]. وحينما يستعملها المخاطِب يصنع منها معاني سياقية. فشأن الترجمان والمترجم هو ترجمة المعاني السياقية أمّا ترجمة الدلالات فهو شأن اللّغويين.

1 ـ 2 ـ تجنّب التطابق (la correspondance) واللّجوء إلى التكافؤ (l'équivalence)

إنّ اللّغات سواء كانت منتميةً إلى عائلة واحدة أو إلى عائلات مختلفة فهي تتباين في جميع المستويات: الصوتي (phonétique) والصرفي (morphologique) والمعجمي (lexical) والتركيبي (syntaxique) وحتى الثقافي (idiomatique/culturel). بحيث أنّ التباين يتعمّق عندما ننتقل من عائلة لغوية إلى عائلة لغوية أخرى. وهذا لا يخفى عن نظرية المعنى. إنّ الحديث عن خصوصيات اللّغة من أهم ما تطرّقت إليه **لودورير** و**سيليسكوفيتش** في دراساتهما بل شكّل إحدى الركائز التي بُنيت عليها تصوّراتهما. تقول **لودورير** في هذا الصدد:

« [Les] formes et structures [des langues] ne sont pas des copies conformes de l'une de l'autres »[2].

وهذا يعني أنّ اللّغات ليست نُسخاً متطابقة.

ولمّا كانت اللّغات متباينةً في جميع المستويات، اقترحت نظرية المعنى، كما أشرنا آنفاً، ضرورة التمييز بين الدلالة (signification) والمعنى (sens) ومن ثمة ضرورة ترجمة هذا المعنى استناداً إلى الدلالة. ولمّا بات من الضروري على المترجم أن يساهم في نقل المعنى ولكي ينجح في ذلك عليه الإقرار بأنّ ما يترجمه من معنى لا يجده في المستوى اللّغوي بل هو في مستوى الخطاب والنص وبعبارة أخرى، إنّ المترجم يتوصل إلى ترجمة سليمة حين يترجم الكلام (parole) وليس اللّسان لأنّ الكلام لا يتطابق مع اللّسان. ولتكون الترجمة ذكيّةً (traduction réfléchie) عليها أن تنقل ما يريد صاحب النص/الخطاب قوله (vouloir dire) وليس ما تعنيه الكلمات منعزلةً. بالعكس إن اكتفت الترجمة بنقل معاني الألفاظ كانت ساذجةً. يقول **ليويس كارول** (Lewis Carroll) :

"Take care of the sense, the words will take care of themselves" [3].

أي أنّ المترجم إذا ما راعى المعنى فإنّ الكلمات لن تكون عقبةً أمامه. رُغم ذلك يكتفي العديد من المترجمين بإيجاد ما يقابل ألفاظ وعبارات اللّغة أ في اللّغة ب تقريباً كما تفعله الترجة الآلية. ويصوغون بذلك عبارات مخالفة للمعنى الأصلي (faux sens) أو مضادّةً له (contre sens) أو أكثر من ذلك ... لا تعني شيئاً (non sens) في اللّغة الهدف. لذا فالمترجم الذكيّ لا يقيم عملية الترجمة على مبدأ التطابق أو التقابل (correspondance/transcodage) وإنّما على مبدأ التكافؤ (équivalence) لأنّه على أتم دراية بأنّ اللّغتين المنقولة والمنقول إليها تختلفان في أكثر من مستوى. لذا فلاسترداد المعنى يعيد صياغته في قوالب قابلة لاحتوائه في اللّغة الأخرى التي تختلف في كثير من الأحيان من تلك التي تلجأ إليها اللّغة الأولى. كما أشرنا سابقاً، لكلّ لغة وجهة نظرها ورؤيتها للعالم، ولمّا كان المعنى قابلاً للصياغة وقابلاً للاستيعاب أيّ كانت اللّغة (le sens est universel) لم ولن تكون الترجمة عملية مستحيلة.

ولهذا كلّه فالسبيل إلى الترجمة السليمة هو أسلوب التكافؤ (équivalence) أو ما يسميه **أوجين نايدا** (Eugène Nida) بالتكافؤ الديناميّ (équivalence dynamique) ويسميه **بيتر نيومارك** بالترجمة التبليغية (traduction communicative) وليس أسلوب التطابق ولقد سمّاه **نايدا** بالتطابق الشكلي (correspondance formelle) و**نيومارك** بالترجمة اللّسانية (traduction linguistique).

إنّ اللجوء إلى أسلوب التكافؤ لا مفرّ منه بالنسبة لنظرية المعنى. بيد أنّ **لودورير** و**سيلسيكوفيتش** تشيران إلى مواطن يفرض فيها أسلوب التقابل نفسه وذلك عندما يتعلّق الأمر بأسماء العلم والمصطلحات التقنية والتعداد والعبارات الشائعة أو المصكوكة (expressions consacrées/figées) كالأمثال والحكم لكن أيضاً، بالنسبة للترجمان، في اللّحظات الأولى من بداية الترجمة الشفوية التي تسبق تشكيل وحدة الترجمة في ذهنه. ففي هذه المواضع يُعدّ أسلوب التقابل صحيحاً بل الأنسب[4]. ولهذا يمكننا القول إنّ عملية الترجمة تتأرجح بين أسلوبي التقابل والتكافؤ[5].

1 ـ 3 ـ المعنى الصريح والمعنى الضمني (l'explicite et l'implicite)

إذا اعتبرنا الأشياء والكائنات في العالم متعدّدة الأبعاد فإنّ اللّغات حينما تعبّر عنها لا تشير إلى أبعاد الشيء الواحد كلّها وإنّما تسلّط الضوء على بعدٍ واحد أو بعدين فقط مستهدفةً إيّاها بالكامل. وذلك راجع إلى ظاهرة اختلاف نظرة الشعوب للعالم إليه **هامبولدت** (Humboldt)[6]. إنّ رؤية العالم ما هي إلاّ وجهة نظر ووجهة النظر تكون من زاوية واحدة. أو بالأحرى يعود ذلك إلى خصوصيات أو هندسة اللّغة[7]. تقول **لودورير**:

« La langue, tout en exprimant l'ensemble d'une chose ou d'une notion, a pour caractéristique essentielle (cela peut être vérifié dans chaque langue, et pour toutes les langues), de n'en nommer qu'un aspect seulement »[8].

ومفاده أنّ من خصوصيات اللّغة أن تسمّي بعداً واحداً من أبعاد المفهوم للتعبير عن أبعاده كلّها وهو ما يمكن التأكّد منه في جل اللّغات.

على مستوى اللّغة يخصّ المجاز المرسل (synecdoque)[9] الألفاظ لكن أيضاً العبارات الشائعة كالأمثال والحكم.[10] ويتجلّى المجاز المرسل بالنسبة **للودورير** في جميع مستويات عملية التواصل للخطاب. فكما للمجاز المرسل مكانة في اللّغة (langue) فإنّ الخطاب (discours) لا يستغنى هو الآخر عنه. بل حتّى المتكلّم لا يعبّر بالكامل عمّا يريد قوله (vouloir dire) وإنّما جزئياً. هذا ما تلخّصه **لودورير** فتقول:

« Les langues n'explicitent qu'une partie des concepts qu'elles désignent, les discours et les textes une partie seulement des idées qu'ils expriment […]. Les auteurs eux aussi n'explicitent qu'une partie de leur vouloir dire […] ».[11]

ومعنى هذا أنّ اللّغات لا تعبّر عن المفاهيم التي ترمز إليها إلاّ بالجزء. وهو شأن الكاتب حينما يعبّر عمّا يريد قوله مصرّحاً فقط بالبعض منه.

استناداً إلى ما سلف ذكره يمكننا تقسيم مستويات المجاز المرسل (synecdoque) إلى ثلاثة: المستوى اللّغوي والمستوى الخطابي ومستوى المتكلّم (المخاطِب).

ترى نظرية المعنى بأن المتلقّي يفهم المجاز المرسل بأبعاده المختلفة استناداً إلى الدلالة (signification) أي البعد الصريح من الكلام (explicite) والمعرفة المشتركة (savoir partagé) وذلك كما توضّحه **لودورير**:

« […] Les discours et les textes comportent une grande partie d'implicite qui correspond au savoir partagé entre interlocuteurs […] ».[12]

أي أنّ النصوص والخطابات تنطوي على قسطٍ وافر من المعاني الضّمنية والتي تمثّل المعرفة المشتركة بين المتخاطبين.

إنّ أمانة المترجم تتجلّى في إعادة صياغة المعنى في اللّغة المنقول إليها. ولا تكمن في إيجاد الألفاظ المقابلة فيها لتلك المستعملة في اللّغة المنقولة. لكن المعنى الذي يسعى المترجم جاهداً لاستيعابه قبل ترجمته يكتنفه بعدٌ مضمر ربّما يستعصى التحكّم فيه أي فهمه وترجمته. وبعبارة أخرى فإنّ مشكلة المترجم مزدوجة.(13)

فلفهم المعنى، عليه استيعاب الألفاظ بكلّ أبعادها (الدلالية والسياقية والأسلوبية والثقافية) وعدم الاكتفاء بما هو ظاهر جلّي. ولترجمة المعنى الذي يكون قد توصل إلى فهمه من خلال ما تعبّر عنه الكلمات والعبارات معتمداً على السياق وقدراته الشخصية ومعارفه المكتسبة، عليه مراعاة هندسة اللّغة المنقول إليها لإعادة صياغة المعنى ببعديه الصريح والضّمني. لكن ما السبيل إلى ذلك؟ هل سيحافظ كلاهما على حجميهما وأهمّيتهما في اللّغة الهدف اللذين وردا بهما في اللّغة المصدر؟ ما يمكننا قوله هو أنّ الخطاب أو النص أيًّا كان نمطه وظروفه يتألّف دائماً من بعد صريح وبعد ضمني. لكن في معظم الأحيان لا يشكل ذلك عائقاً لعملية التواصل لأنّ كليهما يحضر نسبياً بحجمه الضروري. تقول **لودورير** في هذا المقام :

«Tout texte est un compromis entre un explicite suffisamment court pour ne pas lasser par l'énoncé de choses sues et un implicite suffisamment évident pour ne pas laisser le lecteur dans l'ignorance du sens désigné par l'explicite ».(14)

ومفاد هذا القول أنّ كلّ نص يُعدُّ تسويةً بين بعدٍ صريحٍ قصير بما فيه الكفاية لتفادي الملل لدى القارئ وبعدٍ ضمني واضح بما في الكفاية أيضاً كي لا يجهل القارئ المعنى الذي يوحي إليه البعد الصريح.

فإن أدرك المترجم هذه الحقيقة واعترف بها أصبح أكثر استقلاليةً تجاه الألفاظ والكلمات ولم تعد الصيغ الضّمنية "تخيفه" بل فكّر في كيفية سكبها في وعاء اللّغة المستقبِلة. وهذا لأنّ البعد الصريح (الألفاظ والعبارات) لا يحوي البعد الضّمني وإنّما يُوحي به فقط. تقول **لودورير:**

« Plus l'implicite est vaste, mieux le sens se libère de la signification linguistique ».(15)

أي أنّ البعد الضّمني كلّما كان أوسع إلاّ وتحرّر المعنى من الدلالة اللّسانية.

2 ـ الشكل والمضمون في نظرية المعنى: يُعدّ المعنى بالنسبة للنظرية التأويلية للترجمة أهم ما ينبغي نقله من اللّغة المصدر إلى اللّغة الهدف. وتُسمّى أيضاً نظرية المعنى نسبةً إلى ذلك. ولقد ورثت النظرية منطقها هذا من طبيعة الترجمة الشفوية التي يهتم خلالها الترجمان بالمعنى ولا يكترث بالألفاظ التي يستعملها المتكلم إلاّ بالقدر الذي تخدم به المعنى. ولعلّ السبب الرئيسي لذلك هو ضيق الوقت الذي يعاني منه الترجمان في مهامه إذ يكون مضايقاً وليس بإمكانه مراعاة ترتيب الكلمات أو طبيعتها. وعندما ارتأت النظرية تعميمها على الترجمة بنمطيها الشفوي والتحريري، ظلّت المقاربة نفسها على اختلاف النصوص وسياقاتها.

تقترح إذاً نظرية المعنى "التأويل" كسبيل إلى الترجمة مهما كان نمطها ومهما كان نمط النص المعالج. إذ يرى مؤسسو النظرية بأنّ المترجم[16] لا يمكن له إنجاز ترجمة أمينة وسليمة ما لم يؤوّل المعنى الذي يودّ صاحب النص الأصل تبليغه. إذ يقوم المترجم بعملية تجريد المعنى من الألفاظ التي عبّر بها الكاتب عنه (étape de la déverbalisation) ثمّ يعيد صياغة المعنـــى "ذاته" في اللّغة الهدف في منطق هــذه الأخيــرة، مــراعيــاً خصــوصيــاتهـــا وثقافتهـــا وتطلّعـــات القـــارئ (étape de la reverbalisation).[17]

وإذا أردنا أن نحكم على النظرية التأويلية لقلنا بأنّها تعتمد أكثر على أسلوب التكافؤ كما أنّها تمشي على خطى الترجمة الحرّة التي سلفها القدماء في عصر النهضة الأوروبي والتي سلكها أيضاً المترجمون العرب في العصر العباسي الإسلامي. وهي تنبذ الترجمة الحرفية التي تراها ترجمة غير ذكية أو بالأحرى عملية "دون الترجمة" (sous-traduction). وأكبر حجة تعلّلّ بفضله نظرية المعنى اتجاهها هذا هو أنّ اللّغات غير متطابقة في رؤاها وخصوصياتها وعبقرياتها. إذ ترى أنّه لا سبيل لتخطي النظرة الضيّقة التي يتبنّاها المترجم عند اختياره لسبيل

الترجمة الحرفية والأخطاء التي تنجم عن ذلك سوى التحرّر من الألفاظ والاكتفاء بما تحمله من معاني ومن ثمة التعبير عنها من جديد في منطق اللّغة الهدف.

وأمّا الشكل، فهو ثانوي بالنسبة لنظرية المعنى. فالمنهج[18] يظل ذاته في جميع الحالات، مهما كان نمط النص أو شكله سواء تعلّق الأمر بالترجمة الكتابية أو الشفوية.

3 ــ ماذا عن نمط النص ؟

يتميّز النص الأدبي عن غيره من النصوص بعدّة خصائص أهمها:

– البعد الجمالي: يحصر **بيتر نيومارك** (Peter Newmark) الوظائف النصية في ست (تعبيرية وتبليغية ودعائية وجمالية وجدلية وميتالغوية/ميتالسانية)[19]. فهي تحضر في النصوص بدرجات متفاوتة بحسب نمط النص وأسلوب الكاتب والموضوع المعالج. أمّا عن الوظيفة التي تخص النص الأدبي فهي الوظيفة الجمالية (fonction esthétique). فإذا كان هدف الصِحافي أو العالم يتمثل في إيصال المعلومات والمعارف إلى القارئ دون الاكتراث كثيراً بالوسائل اللّغوية التي يوظفها للتعبير عن ذلك فإنّ الأديب يهتم بالشكل والمضمون بالقدر ذاته، إن لم نقل بأنّ الأول قد يطغى عن الثاني. فالكتّاب أو الشعراء لا يعبرون عمّا يختلج في أذهانهم ونفوسهم بأسلوب بسيط وكلمات عادية بل لهم "استعمال إرادي وواعٍ للّغة [...] [فهم يحاولون] خلق الجمال بالكلمات كما يفعل الرسام بالألوان والموسيقي بالأصوات والنغمات"[20]. ويكتسح الجمال النص الأدبي على مستويات عدّة: على الصعيد اللّفظي بألوان البديع وعلى المستوى الأسلوبي بالصور البيانية وعلى المستوى الصوتي بالقافية مثلاً وعلى الصعيد الاصطلاحي الثقافي بالأمثال والحكم... ويتحقق جمال النص الأدبي بالقواعد اللّغوية والبلاغية لكن أيضاً من خلال أسلوب الكاتب حينما يحسن توظيف الكلمات والعبارات والصور بشكل يخرج عن المألوف وبطريقة يدفع بها أحياناً الحدود اللّغويةّ !

– الخيال: إنّ ما يتميّز النص الأدبي عن النص العلمي يتمثل أيضاً في ابتعاده في كثيرٍ من المواطن عن الواقع. فالرواية أو المسرحية أو القصيدة لا

تصف دائماً الواقع كما هو بل كما يجب أن يكون (نظرة نقدية)، أو كما كان ليكون لولا التسرّع أو سوء التسيير (حزن وندم وحسرة)، أو كما قد يكون في المستقبل في حالة ما إذا استمر الوضع الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي على تدنيه (تشاؤم) أو ازدهاره (تفاؤل) ـــ أو كما هو مع نوعٍ من المبالغة الإيجابية (المدح والتمجيد) أو السلبية (الانتقاد). وأيّاً كانت الرقعة الجغرافية أو الفترة الزمانية أو اللّغة المنطوق بها، نجد الأديب يطلق العنان لخياله وبأسلوبه يرغم القارئ على السفر والتخلّي عن الواقع ولو لبضع ساعات !

– الذاتية: لمّا كان النص الأدبي موطناً للمشاعر والأحاسيس وما تحمله من آلام وأحزان وآمال وأفراح، كان أيضاً موطناً للذاتية. ففي الوقت الذي ينقل النص العلمي المعرفة بين الأشخاص من العقول إلى العقول ينقل النص الأدبي المشاعر من القلوب إلى القلوب. فقواعد النص العلمي القائمة على المنطق والموضوعية تسمح للعقول استيعاب المعارف بالطريقة ذاتها تقريباً. أمّا النص الأدبي فلا ينطلق من العقل بل من المشاعر وأنّ هذه الأخيرة لا تستند إلى المنطق ولا أساس ثابت لها. إنّها تتغير باستمرار من شخص إلى آخر، من ثقافة إلى أخرى، من فترة زمانية إلى أخرى ... بل من لحظة إلى أخرى لدى الشخص نفسه ! لذا فمن العسير تقاسم المشاعر لدى الأشخاص لأنّها ذاتية وفردية. لكن، إن كان الأمر كذلك، فما الفائدة من النص الأدبي؟!

إنّ القارئ برهافة حسّه وذكائه وتمعّنه يمكن أن يشارك الكاتب أو الشاعر في أحاسيسه ومشاعره وعواطفه بل قد يصل به ذلك إلى درجة التساؤل ـــ في بعض الحالات ـــ عمّن صنع النص أهو نفسه أم الأديب الذي يقرؤه ؟!

4 ـــ **الترجمة الأدبية:** بالرغم من أنّ الترجمة الأدبية لم تُقدّر حق قدرها إلاّ أنّها في اعتقاد الكثير من منظري الترجمة والأدباء تظل الفرع الأكثر أهمية وانتشاراً خلال فترة طويلة من الزمن. تقول **جوئيل رضوان** (Joëlle Redouane) في هذا الصدد:

« Depuis Goethe, la traduction littéraire est considérée à la fois comme plus indispensable et la plus impossible. Jusqu'à une époque très récente, elle était la discipline reine »(21).

ومفاد هذا أنّ الترجمة الأدبية ظلّت لفترة طويلة وحتّى الماضي القريب النمط الأكثر تناولاً. وظلّت منذ عهد الفيلسوف الألماني **غوت** النشاط الأكثر أهمّية والأصعب في الوقت ذاته.

وتُعنى الترجمة الأدبية بالروايات والقصص والمسرحيات والقصائد الشعرية والمقالات والخطابات والرسائل الأدبية وغيرها. وقد تحدّت النمط السائد في الترجمة عموماً منذ عهد بعيد ألا وهو: الترجمة الحرفية. فإذا كان هذا الأسلوب ينطبق بسهولة على النصوص العلمية حيث يعمد المترجم أن يجد في اللّغة المنقول إليها مكافئات للمصطلحات الموظفة في اللّغة المنقولة فالأمر ليس بمثل هذه السهولة والبساطة بالنسبة للنص الأدبي. فهو لا يقوم حصراً على المنطق العقلي وإنّما يستمدّ مادّته من الوجدان والشعور والثقافة المحلّية. إنّها أمور تتباين من رقعة جغرافية إلى أخرى ومن زمان إلى آخر ومن شخص إلى آخر. لذا فعلى المترجم حينما يتعامل مع النص الأدبي أن يحرص على "إعادة تشكيل المكافئ الطبيعي الأقرب لرسالة لغة المتن، في لغة المتلقي للترجمة، أولاً من ناحية المعنى، وثانياً من ناحية الأسلوب"(22).

إنّ أسلوب الترجمة الحرفية قد يناسب النص العلمي لكونه يقوم على المنطق والحقائق الثابتة بينما لا يناسب النصوص الأدبية وإنّما تستدعي في الغالب أسلوب التكافؤ(23). والسبب في ذلك راجع إلى اختلاف رؤى اللّغات للعالم (vision du monde). اختلاف يحدده التاريخ والبيئة الجغرافية وطرق العيش الاجتماعية والاقتصادية والقرارات السياسية والشعائر الدينية ... إلخ. بمعنى آخر، إنّ الأديب عندما يكتب نصاً لا يمكنه أن يتصرّف خارج نطاق تلك الأبعاد بالكامل. إذ يساهم إلى حدّ كبير في صياغة ذلك النص التاريخ الشخصي للأديب وبيئته الاجتماعية وانتماءاته الفلسفية والسياسية ... لكن ماذا عن متلقي النص؟ أيكون حتماً من البيئة

الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية نفسها مع صاحب النص؟ إنّهما يختلفان في غالبية الحالات ناهيك عن انفراد كلّ واحدٍ منهما بشخصيته، فمهما تقاربا سيظلّان دوما منفصلين ولن ينصهرا أبداً في جسم أو عقل واحد. فمن المستحيل إذن أن تتطابق رؤية الأديب وقارئه!

لهذا فعلى المترجم ــ الذي يعدّ أولاً قارئاً للرسالة قبل أن يتحول إلى ناقل لهاــ مراعاة اختلاف رؤى الثقافتين (ثقافة صاحب النص وثقافة القارئ) كي لا ينحرف عن فحوى النص وألاّ يتحول إلى مجرد مفسر له وذلك كما تؤكد عليه إنعام بيوض: "إنّ مهمّة المترجم هي نقل ما يقوله الكاتب وليس شرح ما يعنيه، فهذا عمل المعلّق. ما قاله الكاتب وكيف قاله، تلك هي مشكلة المترجم"(24).

لكن لو تفطّن الجميع إلى ضرورة النظر في نمط النص(25) قبل الخوض في الحديث عن الأسلوب الذي ينبغي اعتماده في ترجمته (حرفياً أم بحرية أم بينهما) وسُلّم بأنّ الترجمة الحرفية تليق بالنصوص العلمية بينما تناسب الترجمة الحرّة النصوص الأدبية بشتّى أنواعها لتقلّصت دائرة الصراع ولخطت نظرية الترجمة شوطاً مهماً نحو الأمام.

ولا شك في أنّ للترجمة الأدبية خصائصها ومزاياها التي تجعل منها فرعاً فريداً من فروع الترجمة. لكن لا يمكننا أن ننكر أنّ لها صعوبات قد لا نجدها حينما نتعامل مع النصوص غير الأدبية.

إنّ الأهم بالنسبة لمترجم النصوص الأدبية لا يتمثّل في رفع التحدي في إمكانية تطبيق أسلوب الترجمة الحرفية على النصوص الأدبية فتلك ليست مشكلته على الإطلاق. إنّما تكمن غايته في صياغة نص مكافئ على جل النواحي والمستويات للنص الذي يُعرض له للترجمة.

تقول **جويئيل رضوان** (Joëlle Redouane) في هذا المضمار:

« […] la traduction littéraire doit rendre compte avant tout d'une création originale régie par des critères esthétiques, et non plus seulement fonctionnels ou purement linguistiques »(26).

وما نفهمه من خلال ما تقوله **رضوان** هو أنّ صعوبة الترجمة الأدبية لا تتجلّى فقط في البعد اللّغوي كما ذهب إليه **كاتفورد** وإنّما أيضاً في البعد الجمالي والفنّي للنص كما تؤكد على ذلك **إنعام بيوض**: "فالشكل في النصوص الأدبية ليست له وظيفة ترابطية فقط، بل وظيفة جمالية أيضاً [...] إذ لا يكفي تحقيق التطابق اللّساني بين العمل الأدبي وترجمته، بل يجب تحقيق التطابق الفنّي أيضاً"(27).

وتقول كذلك: "في الأدب عموماً، حيث الشكل أحد أهم عناصر الرسالة، يصعُب أن يكتفي المترجم بإيصال المعنى فقط، دون أن يسعى إلى توصيل الشكل والإيقاع والأسلوب وحتى أحيانا الرنين الداخلي للنص"(28).

إنّ النص الأدبي مهذّب في شكله وفي مضمونه فهو ليس مجرد سرد للأفكار والعواطف والمشاعر بطريقة عادية مألوفة ولا هو بناء محكم الجمال والشكل فارغ في محتواه. لذا فينبغي على المترجم أن يجعله كذلك في اللّغة المنقول إليها فإن حافظ على المضمون دون الشكل أو العكس فقد أخفق وظلّ السبيل.

تستطرد **إنعام بيوض** عن طبيعة الترجمة الأدبية قائلةً: "إنّ طبيعة عملية الترجمة [الأدبية] هي نقل يحدّده المحتوى والشكل، المحتوى الذي يتشكل من المعاني، والشكل الذي يحدّده الأسلوب"(29).

إنّ الأديب حين يختار ألفاظه وعباراته بشكل واعٍ وحين يعمد إلى توظيف الكنايات والاستعارات والجناس والتورية وغيرها من وسائل الجمال الأدبي الفنّي إنّما يبحث في اللّغة التي يكتب بها والثقافة وماضيها اللذين تحملهما ولا يفكر في مصير نصه عند الترجمة. تلك مهمة المترجم، أقول عقبته ! لأنّه يجعل نفسه في منزلتين، منزلة الأديب في لغة المتن ومنزلة القارئ في اللّغة المستهدفة.

وإذا كانت للّغة التي يكتب بها الأديب هندسته ورؤيتها الخاصة، فللأديب نفسه نظرة خاصة لكونه تلقّى تربيةً خاصةً وعاش حياةً خاصةً وله ماضٍ خاص ... وبالتالي يوظف اللّغة بشكل خاص أو بالأحرى له أسلوبه الخاص. إنّ خصوصية الأسلوب تندرج ضمن الصعوبات التي تواجه مترجم النصوص الأدبية. وهذا ما

ذهبت إليه **بيوض**: "[...] فالصعوبة التي يكتنفها عمل مترجم النصوص الأدبية تظهر على عدّة أصعدة، وهي نقل النص الأدبي بأمانة تُولَى للأديب ومقاصده وللعمل الأدبي وجمالياته، وللقارئ وخلفياته، فبالنسبة للأديب مثلاً، يجب أن لا ينسى بأنّ لمعجمه إيحاءات خاصة به، وإذا افترضنا أنّ لكل مفردة معناها أو معانيها الموجودة في القواميس، لا يستطيع أي قاموس أن يدلّنا على المعنى الذي تعرّض لترسّبات تجاربية لا تُحصى في ذهن الكاتب، تجعل من المفردة شيئاً فريداً [...] لكن كيف للمترجم أن يلم بهذه الجوانب النفسية والذاتية المحضة التي تلف المفردات ــ حتى المحايدة منها ــ في ذهن الأديب؟"[30].

وتُضاف إلى قائمة العراقيل التي تصعّب من مهام مترجم النصوص الأدبية كون الكلام لا يأتي دائماً صريحاً وإنّما يحتل فيه البعد الضمني قسطاً وافراً. تؤكد **رضوان** على ذلك بقولها:

« Le texte littéraire […] recouvre à la fois ce qui est dit, le vouloir dire […], et le non-dit »[31].

وهذا يعني أنّ النص الأدبي ينطوي على المعنى المصرّح به والمعنى الضّمني وكلّ ما يريد الكاتب قوله.

ذكرنا من خصوصيات النص الأدبي: الذاتية. وهذا يعني أنّ الكاتب لا يمكنه أن يتجرّد ممّا هو شخصي وخاص به دون سواه وقد أشرنا إلى ذلك تارة أخرى لمّا تعرضنا لخصوصية الأسلوب وصعوبة ترجمته. لكن مترجم النصوص الأدبية حينما يأتي ليصوغ النص من جديد في اللّغة المستهدفة يتحول بدوره إلى كاتب. فمهما حاول تقمّص شخصية الكاتب ليختفي وراءها وينصهر في أتونها كان ذلك في غاية الصعوبة إذ لن يتحقق ذلك بالكامل أبداً. وكما تقول **إنعام بيوض**: "لايستطيع المترجم مهما توخى الموضوعية إلاّ أن يترك بعضاً من ذاته في الترجمة"[32]. وهذا بالطبع لا يعني أنّه لم يبق لمترجم النصوص الأدبية سوى أن يستسلم وإن كان عليه أن يسلّم باستحالة عزل ذاته عن ذات الكاتب. لكنه إن كان واعياً بالخطر الذي يترصّده قد يتقرّب أكثر من صاحب النص ويجعل نفسه وسيطاً

بين هذا الأخير والقارئ. لأنّ القارئ حينما يلجأ إلى العمل الأدبي المترجَم لا يريد الاطلاع على أفكار المترجم ومشاعره بل على ما يريد الكاتب تبليغه.

تلك إذن أهم الصعوبات التي تعترض مترجم النصوص الأدبية وتؤكد على أنّ نمط الترجمة الذي يمارسه يخالف الأنماط الأخرى التي عادةً ما نجمعها تحت عنوان "الترجمة الوظيفية أو البراغماتية (Traduction fonctionnelle/pragmatique)" وتنتمي إليها الترجمة العلمية التي تُدعى أيضاً الترجمة التقنية. لذا يرى البعض ضرورة انفراد الترجمة الأدبية كفرع مستقل من فروع الترجمة[33].

5 ــ مقاربة نظرية المعنى بشأن الترجمة الأدبية

على خلاف ما يعتقد الكثير، فإنّ النص الأدبي لا ينحصر في البعد الجمالي فحسب ولا يستهدف الكاتب أو الشاعر من خلاله التسلية فقط وإنّما ينطوي على أبعاد رمزية أو أخلاقية أو اجتماعية أو نفسية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها. وما دام الأمر كذلك، فغاية النص الأدبي تواصلية بالإضافة إلى كونها جمالية.

أثبتت التجربة الترجمية بأنّ النظرية التأويلية قابلة للتطبيق على الترجمة الشفوية بمختلف النصوص المعالجة وعلى الترجمة التحريرية حينما يتعلّق الأمر بالنص التقني. وتلك النصوص كلّها تخضع للمسار نفسه والمتمثل في: الفهم/التأويل (compréhension) والتجريد (déverbalisation) وإعادة الصياغة (reverbalisation) وللقواعد نفسها والمتمثلة أساساً في الاعتماد على المعرفة المشتركة (savoir partagé) والأبعاد غير اللّسانية (facteurs extra-linguistique). أمّا عن النص الأدبي فلم يتجرّأ واضعو نظرية المعنى في السنوات الأولى من تأسيسها ــ على الأقل بصريح العبارة ــ على القول بأنّه يخضع للآليات نفسها. لكن بمرور الوقت، أخذت النظرية التأويلية تتطور وتوسع من مجالات بحثها. وعندما كدنا أن نسلّم بأنّها تخصّ الترجمة الشفوية دون سواها أثبتت **سيليسكوفيتش** بإمكانية تطبيقها على النصوص التقنية وهو ما أكّدته

كريستين ديريو (Christine DEURIEUX) في كتابها (Fondements didactiques de la traduction technique). وهاهو **فورتوناتو إزرائيل** (Fortunato ISRAËL) أحد مؤسسي النظرية يحاول إثبات شمولية النظرية التأويلية وإمكانية إخضاع النص الأدبي لمبادئها وذلك من خلال إثبات وجود الوظيفة التواصلية (fonction communicative) في هذا الأخير إلى جانب الوظيفة الجمالية/الأدبية البحتة (fonction esthétique) بحيث يتمكن مترجم النصوص الأدبية أن يعتمد على الوظيفة التواصلية ويُخضعها لقواعد النظرية التأويلية السالفة الذكر(34). فإذا كان شكل النص مهم بالنسبة لمترجم النصوص الأدبية فإنّ **إزرائيل** لا ينكر ذلك إلاّ أنّه يعتقد بأنّ الشكل يُعدُّ مهمّاً بالقدر الذي يحتويه من المعاني(35).

لكن رغم ذلك كلّه، يسلّم **إزرائيل** بوجود عراقيل تعترض المترجم الأدبي فتحول بينه وبين تطبيق قواعد النظرية التأويلية على النص الأدبي، أهمّها:

– غياب بعدي الزمان والمكان اللّذين نجدهما في الترجمة الشفوية بحيث يمكّنان الترجمان من التقرّب أكثر من المعنى الذي يقصده المتكلّم(36)؛ في حين لا يكون بحوزة مترجم الرواية أو المسرحية أو المقال الأدبي أو القصيدة سوى ألفاظ "جافة" عليه أن يحييها من جديد وأن يتصوّر البعدين الزمني والمكاني.

– صعوبة إجراء عملية التجريد (déverbalisation) المذكورة آنفاً والتي مفادها فصل المعنى عن اللّفظ. إذ أنّ اللفظ (الشكل) هو معنى بذاته (المجاز) بالإضافة إلى ما يرمي إليه من معاني مباشرة.

الخاتمة: يتميّز النص الأدبي بأسلوبه الخاص. فهو ليس مجرّد ألفاظ وعبارات موحية بمعاني سطحية نستخلصها على ضوء القراءة الأولى. وإنّما هو خليط من المجاز والحقيقة يُنسجان بالبيان والبديع ممّا يجعل المعنى يتّخذ أبعاداً عميقة وممّا يؤثر في القارئ ويجعله يتجاوب مع الكاتب أو الشاعر. ولعلّ تطبيق المنهج العام الذي وضعته النظرية التأويلية للترجمة على النص الأدبي يكون أصعب ما يمكن

أن يعترض المترجم. إذ أنّ أسلوب الترجمة الحرّة الذي تفضّله تلك النظرية من خلال إعادة صياغة المعنى في "منطق" اللّغة الهدف وخصائصها وعبقريتها وثقافتها مع إهمال الشكل يُعدُّ في نظرنا خيانةً. إنّ لجوء الكاتب أو الشاعر إلى الاستعارة أو المجاز المرسل أو التورية أو غيرها من الصور والمحسنات اختيار واعٍ لابد على المترجم أن يأخذه بعين الاعتبار.

يعتقد رواد النظرية التأويلية وعلى رأسهم **فورتوناتو إزرائيل** بأنّ مبادئ النظرية التي وضعوها قابلة للتطبيق على الترجمة الأدبية وذلك بتعديل المنهج العام الذي يتم من خلاله منح الأهمية القصوى للمعنى. بحيث يرى **إزرائيل** بأنّ ذلك غير كافي وأنّه من الضروري الحفاظ على الأثر الذي تحدثه الوظيفة الجمالية في القارئ، علماً أنّه وبالنسبة إليه كلٌّ يعدُّ معنىً بما في الوظيفة الجمالية تلك(37)! لكن هل هذا يعني أنّ لنظرية المعنى منهجان، عام يليق بأنماط النصوص كلّها عدا النص الأدبي وخاص يتعلّق بهذا الأخير؟ هذا ما نفهمه من خلال الرُؤى الجديدة للنظرية التأويلية. لكن رُغم هذا التوجّه، تظلّ النظرية في رأينا قاصرةً في هذا الشأن حتّى وإن حاول مؤيّدوها إعادة الاعتبار للشكل بإدراجه في المعنى لتظلّ النظرية نظرية المعنى. فيكون بذلك للشكل معنيان معنى "عادي" ومعنى رمزي. لكن، كيف للشكل أن يصبح معنى؟ إنّ الفكرة تبدو مشيّقة لكنها صعبة المنال لذا فمبادئ النظرية التأويلية تظلّ صعبة الممارسة على النص الأدبي في وقتنا الحالي.

المراجع

- بيوض إنعام، **الترجمة الأدبية مشاكل وحلول**، الجزائر/ بيروت، ANEP / دار الفارابي، 2003.
- دودين ماجد سليمان، **دليل المترجم الأدبي – الترجمة الأدبية والمصطلحات الأدبية** (الطبعة الأولى)، الأردن، عمان، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، 2009.

- سيلسيسكوفيتش دانيكا – ماريان لودورير، **التأويل سبيلاً إلى الترجمة** ترجمة: القاسم فايزة (الطبعة الأولى)، بيروت، المنظمة العربية للترجمة 2009.
- فيدوح ياسمين، **إشكالية الترجمة في الأدب المقارن** (الإصدار الأول)، دمشق صفحات للدراسات والنشر، 2009.
- لوكاتش جورج، **الرواية**، ترجمة: بقطاش مرزاق، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ت.
- CORDONNIER, Jean-Louis, *Traduction et culture*, Paris, Editions Didier, 1995.
- DURASTANTI, Sylvie, *Eloge de la trahison*, Paris et New York Le Passage, 2002
- DURIEUX, Christine, *Fondements didactiques de la traduction technique*, Paris, La maison du dictionnaire, 2010.
- ECO, Umberto, *De la littérature*, Paris, Editions Grasset & Fasquelle, 2003.
- FONTANIER, Pierre, *Les figures du discours*, Paris, Flammarion 1995.
- GUIDERE, Mathieu, *Introduction à la traductologie. Penser la traduction : hier, aujourd'hui, demain*, Bruxelles, Groupe de Boeck, 2008.
- ISRAËL, Fortunato, « Traduction littéraire et théorie du sens » in *Etudes traductologiques – en hommage à Danica SELESKOVITCH*, Paris, Lettres Modernes Minard, 1990, pp. 29-43.
- IWUCHUKWU, Matthew O., *Théorie du sens et sociocritique en traduction littéraire*, Volume 55, numéro 3, septembre 2010, p. 529-544.
- LEDERER, Marianne, « La traduction contrôle-t-elle encore ses moutons noirs ? » in *Le français moderne*, Revue de linguistique française, n° 4, Paris, 1980.
- LEDERER, Marianne, *La traduction aujourd'hui, le modèle Interprétatif*, Paris, Hachette-Livre, 1994.
- OSEKI-DEPRE, Inês, *Théories et pratiques de la traduction littéraire*, Paris, Armand Colin, 1999.

- REDOUANE, Joëlle, *Encyclopédie de la traduction*, Alger, OPU 1981.
- REDOUANE, Joëlle, *La traductologie – Science et Philosophie de la Traduction,* Alger, OPU, 1985.
- SELESKOVITCH, Danica et LEDERER, Marianne, *Interpréter pour traduire*, Paris, Didier Erudition, 1984.

الهوامش:

---

1 – لأنّ اللّغات تتطور بتطور المجتمعات التي توظفها.

2 – انظر : Danica, SELESKOVITCH et Marianne, LEDERER, *Interpréter pour traduire*, Paris, Didier Erudition, 1984, pp. 298-307.

3 – المرجع نفسه، ص. 105.

4 – انظر : Danica, SELESKOVITCH et Marianne, LEDERER, *op. cit.*, p. 219.

5 – المرجع نفسه، ص. 10.

6 – انظر : Joëlle, REDOUANE, *Encyclopédie de la traduction*, Alger, OPU, 1981, p. 24.

7 – هذا المصطلح من وضع الأستاذ **سليم بابا عمر** (جامعة الجزائر II) كبديل لمصطلح "عبقرية اللّغة".

8 – انظر : Danica, SELESKOVITCH et Marianne, LEDERER, *Ibid.*, p. 56.

9 – لا نقصد ب "المجاز المرسل" في هذا السياق ما أشار إليه النحاة العرب ولا ب "synecdoque" المجاز في البلاغة الغربية وإنّما قصدنا بكلتا الكلمتين البعد الضّمني في الكلام.

10 – انظر: Marianne, LEDERER, *La traduction aujourd'hui, le modèle Interprétatif,* Paris, Hachette-Livre, 1994, p. 58.

11 – المرجع نفسه، ص. 214.

12 – انظر : Marianne, LEDERER, *Ibid.*, p. 214.

13 – انظر : Marianne, LEDERER, *op.cit.*, 1994, p. 62.

14 – المرجع نفسه، ص. 58.

15 – المرجع نفسه، ص. 47.

16 – نقصد به المترجم والترجمان على حدّ سواء.

17 – انظر: Danica, SELESKOVITCH et Marianne, LEDERER, *op. cit.*, 1984, p. 60.

18 – تأويل المعنى ثم تجريده من ألفاظ اللّغة المصدر ثمّ إعادة وضعه في قالب لفظي يليق بعبقرية اللّغة الهدف.

19 – جورج لوكاتش، **الرواية**، ترجمة: بقطاش مرزاق، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ت.، ص ص. 33-34.

20 – إنعام بيوض، **الترجمة الأدبية مشاكل وحلول**، الجزائر، ANEP وبيروت، دار الفارابي 2003، ص. 35.

21 – انظر : Joëlle, REDOUANE, *La traductologie – Science et Philosophie de la Traduction,* Alger, OPU, 1985, p. 176.

22 – إنعام بيوض، المرجع السابق، ص. 37.

23 – استعملنا في هذا المقام لفظة "تكافؤ" بمعناها الواسع كما يوظفها **لادميرال** وليس بمعناها الضيّق كما هي لدى فيني وداربلني، انظر: إنعام بيوض، المرجع نفسه، ص. 105.

24 – إنعام بيوض، المرجع السابق، ص. 29.

25 – وهو ما ذهبت إليه نظرية السكوبوس (La théorie du *skopos*).

26 – انظر : Joëlle, REDOUANE, *op. cit.*, 1985, p. 176.

27 – إنعام بيوض، المرجع السابق، ص. 37.

28 – إنعام بيوض، المرجع السابق، ص 40.

29 – المرجع نفسه، ص 34.

30 – المرجع نفسه، صص. 46-47.

31 – انظر : Joëlle, REDOUANE, *op. cit.*, 1985, p. 177.

32 – إنعام بيوض، المرجع السابق، ص. 49.

33 – Cacecilatze (1970)، ذكرته **إنعام بيوض** في: المرجع نفسه، ص. 37.

34 – انظر:

Fortunato, ISRAËL, « Traduction littéraire et théorie du sens » in *Etudes traductologiques –en hommage à Danica SELESKOVITCH*, Paris, Lettres Modernes Minard, 1990, pp. 29-43.

35 – المرجع نفسه.

36 – المرجع نفسه.

37 – انظر : Fortunato, *op. cit.*
ISRAËL,